الحرية ! الحرية !

للأستاذ محمود محمد شاكر

أصبحت الجامعة العربية حديث العرب والمسلمين فى مشارق أرض ومغاربها ، قد ناطوا بها كل آمالهم فى بلوغ غاياتهم إدراك ما تتمناه قلوبهم وضمائرهم ، وحسب الجامعة أن تكون لة أربعمئة مليون عربى ومسلم فى دنيا كلها عدوّ لنا يبتينا وائل . ولكن لا حسب ، فليس من الحق أن نترك الجامعة سير وحدها فى الطريق دون أن ترتفع أصوات طلاب الحق يدها وتسددها وتشير عليها بالرأى بعد الرأى ، فإن رجال ئامعة رجال من أنفسنا ، قد رضيت العرب أن تعهد إليهم بقيادة ذه الشعوب المطالبة بالتحرر من قيود الاستعمار التى ضربت ينا ونحن فى غفلة عن الدنيا الضارية التى أرسلت علينا وحوشها تم فى حمانا ، وتستأثر بخير بلادنا ، وتنال منا نيلا شديداً .

ن نفسها هذا التعبير ، وأن تكشف عن روحها هذا الكشف ؛ طلب منى فى ابتهال وضراعة أن أجيب عما ترسل إلىّ من سائل ، فأوجهها إلى ما تقرأ ، وأحاسبها على ما تكتب ، وأناقشها ا تفكر ، وأملأ يومها الفارغ الطويل بتحرير الكتب إلىّ ، نتظار الأجوبة منى ؛ وذلك فيما تزعم جزء من رسالة الأديب ى اصطفاه الله ليجمّل بفنه قبح الحياة ، ويخفف بعلمه شقاء اس .

إن الرد على ما يأتيك من الرسائل واجب ، وهو بالطبع على سائل السيدات أوجب ؛ ولكن هناك — ولا أكذبك — فماً أقوى من الواجب ، هو تلك اللذة الطبيعية التى يجدها جل فى الحديث إلى المرأة أو عن المرأة . لذلك لم أكد أقضى اجة النفس من جمال تلك الرسالة ، بلجاجة الفكر فى الأسلوب ، إطالة النظر إلى الخط ، حتى كتبت الجواب عنها إلى الفتاة سلوب أب يحاول أن يكون لابنته كما تريد ، ويجتهد فى أن تح أمامها باب الأمل من جديد .

للعمة بقايا — جريدة الزيات

وقد آن أوان تغيير ما كان وما سار عليه العمل فى السنوات الماضية . فالجامعة ترى كما يرى كل عربى ومسلم منذ وضعت الحرب العالمية أوزارها ، أن أوربة الجائعة التى لا تشبع ، قد خرجت من تحت أنقاض الحرب المدمرة وهى أشد ضراوة ووحشية مما كانت قبل الحرب وفى زمان الحرب . وأنها تريد أن تلتهم كل شىء فتشبع ونجوع نحن ، وتعبث ونئن نحن ، وتستغرق فى الترف وناعم العيش وإن أغرقتنا نحن فى الضنك وبؤس الحياة . فهذه روسيا تريد أن توغل حيث أطاقت وجيث تيسر لها أن تتوغل . وهذه بريطانيا الكاهنة العتيقة العاتية تريد أن تتلو زمازم كهانتها على شعوبنا لتنيمنا مرة أخرى على الخسف الذى نمنا عليها أجيالا طوالا . ثم هذه ثالثة الثلاثة أمريكا التى لا ينطفىء أوار ظمئها إلى البترول ، تريد أن تستنفد كل شىء ما استطاعت ، لتتمم هى به وبكل ما يطيق العلم أن يحدثه من ترف أو قوة ، فتدخل مع بريطانيا فى الحلف الاستعمارى ، لا تبالى أن تناقض تاريخ الأحرار القدماء من رجالها وبناة مجدها .

وترى الجامعة كما يرى كل عربى ومسلم ، أن الشرق العربى والشرق الإسلامى لم يقرّ له قرار منذ سكنت نار الحرب ، فقد انبعثت أندونيسيا تريد الحرية فلم يبال بها أحد ، وانبعثت الهند تريد الحرية فأطمعوها بأن أدخلوها فى نظام الدومنيون ، وهبت مصر والسودان تجادل عن حقها فى مجلس الأمن فأصمت الأمم الداعية إلى الحرية آذانها ، وعلقوا القضية فى هيكل الوثنية الحديثة التى تعبد إله الشهوات ، وثار العراق يريد أن يحطم قيود الذل فأرادت بريطانيا أن تخدعه عن نفسه فأبى إباء الأحرار ، وماج المغرب العربى فى تونس والجزائر ومراكش ، فضربت عليه فرنسا حكم الجبروت وألقت بينه وبين العالم أسداداً من فولاذ الظلم والطغيان ، وسكت العالم الجديد عن هذا البغى الأثيم الذى ليس له رادع من نفسه ولا من الناس . وفارت مدغشقر فأطفأ المستعمرون تلك الأرواح المستعرة بألسنة الحراب . وأخيراً كشفت روسيا وبريطانيا وأمريكا وسائر الدول الصليبية قناع النفاق والرياء ، فقضت أن تطلق على فلسطين أنذال البشرية من يهود ، ليطردوا العرب من أرض آبائهم وأجدادهم منذ كان للعرب على هذه الأرض تاريخ ، فأجمعت الأمم الإسلامية على أن ترد هذا العدوان وإن اجتمعت الدنيا كلها على تحقيقه ومناصرته .

ترى الجامعة العربية كل هذا كما يراه كل مسلم وعربي ، ولكنها لا تزال تسير في أمر هذه الثورة الجامحة — التي يريد بها العرب والمسلمون أن يطهروا أنفسهم من الاستعباد ، وأن يطهروا أرض الله من البغي والعدوان — سيرة لم يسرها قبل مطالب يحق يعلم أنه حق لا نزاع فيه . فهي تشغل نفسها مثلا بقضية فلسطين وحدها — على خطر شأنها — وتنسى ما يجري في مراكش وتونس والجزائر ، وما يحدث في العراق ، وما هو كائن في مصر والسودان ، وما لا يزال يحدث في أندونيسيا وسائر البلدان والأمم الطالبة بالحرية . ولعلها تقول إنها تنظر في الأهم ثم المهم ، وإنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذي وضعت له والذي يدل عليه اسمها وهو « جامعة الدول العربية » ، لا جامعة العرب ، ولا جامعة الإسلام ، ولا جامعة الشرق . وهذا حق ، ولكن ما الذي يحسبها على هذا وحده؟ وما معنى أن تقصر أمرها على الدول العربية « المستقلة » في ظاهر الأمر؟ إن هذه الدول العربية « المستقلة » ليست مستقلة في حقيقة الأمر ، وإلا ففيم ثورة مصر والسودان؟ وفيم ثورة العراق؟ وفيم غليان شرق الأردن؟ فليس من الرأي أن تظل الجامعة العربية مقيدة بأشياء هي حبر على ورق ؛ بل ينبغي أن تضم إليها رجالا من تونس والجزائر ومراكش ، وينبغي أن تضم إليها رجالا من سائر الدول الإسلامية والشرقية ممن لهم مع العرب صلات لا يمكن أن تقطعها هذه القواطع المزيفة ، وينبغي أن تعلن الجامعة العربية أنها قد أخذت على عاتقها أن تدافع عن حرية العرب وحرية المسلمين ، وينبغي أن تكون هي المؤتمر العام الذي ينضم إليه كل ناشد للحرية في هذه الأرض مهما اختلفت الأجناس والأديان .

بل ينبغي أن تجمع الجامعة العربية في يدها أمر السياسة العربية والإسلامية جملة واحدة ، وأن تضع المبادىء التي يجب على كل أمة تنضم إليها أن تعمل بها ، وأن تكون هي المعبرة عن النداء العام الذي تنادي به هذه الأمم والشعوب وهو : الحرية ! وينبغي أن تسير في ذلك كله مرة واحدة ، فلا تفرق قضية الحرية إلى قضايا كل واحدة منها تعالج على أسلوب يخالف أخاه أو يتخالف عنه

إن روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وسائر الدول المستعمرة ، أو أذيال الدول المستعمرة ، قد اتفقوا جميعاً على العرب والمسلمين وأهل الشرق ، ففيم تتأخر نحن أو نحجم أو نتلجلج ؟ ولم لا نعمل جميعاً جملة واحدة ، وبدأ واحدة ، وفي وقت واحد ، وأي عائق يعوق المطالبين بالحرية والناشدين لها من اجتماع الكلمة على هذا الحق الذي لا يملك أحد أن يمنحه أحداً ، لأنه عطية الله ونعمته ، ليس لأحد أن يسلبه ؟ وكيف يسلبه وهو قوام هذا البنيان الإلهي؟ فإذا خلا هذا البنيان من الحرية ، فقد خلا من الحياة وانهدم ، وكان أنقاضاً تسعى على أرض تلفظها ، وتستظل بسماء تمجها .

إن جامعة الدول العربية ، إنما تتكلم اليوم باسم الشعوب العربية لا باسم الحكومات وحدها . فلتعلم الجامعة أن الشعوب قد سئمت هذه السياسة العتيقة البالية ، سياسة المداورة والمحاورة ، سياسة الظنون الخداعة ، سياسة المغرمين الذين يحسبون أن سينالون حقوقهم بالمماوضات والمحادثات والمخابرات والمخادعات . فلتحذر إذن أن تقف دون الغاية التي تسعى إليها شعوبها ، ولتخط الخطوة الواسعة التي خطتها الشعوب في سبيل درك الحرية وانتزاعها من يد الجبابرة الظالمين . إنها اليوم أعظم قوة في هذا الشرق العربي والإسلامي ، فلزام عليها أن تنطق بإرادة هذه الشعوب مجتمعة ، لا بإرادة حكومات تقرر بها السياسة ، ولا بإرادة أفراد مهما بلغ سلطانهم فهو دون سلطان الشعوب التي يمثلونها ، بل ينبغي أن تكون الجامعة هي الرقيب الذي لا ينام على إرادة هذه الحكومات وعلى إرادة هؤلاء الأفراد ، طبقاً لإرادة الشعوب وحدها .

إني لا أزال أنذر الناس أننا نعيش اليوم في زمن غير الزمن الذي ألفوه منذ خمس سنوات وحسب ، فاليقظة التي تدب اليوم في كيان الشعوب العربية والإسلامية أضخم وأعظم وأقوى مما يخطر ببال أحد ، إنها القوة التي لا يقف دونها سلطان ولا طغيان ولا بأس . نعم ، إن النظر العابر الخاطف لا يكاد يدل على هذه الحقيقة ، ولكن النظرة الثانية المتعمقة تستطيع أن تحس بهذه الحركة الجياشة التي فار فارها تحت هذا الظاهر الساكن المطمئن . وإنما يغفل من يغفل عن إدراك هذه القوة ، لأنه ألف شيئاً مضى ، فقاس عليه شيئاً جديداً يراه وهو متأثر بهذا الماضي ، ولأنه مسوق في عنان هذه السرعة الخاطفة التي يجري بها عالمنا الحاضر إلى الغايات التي لا يعلم غيبها إلا عالم غيب السموات والأرض . ولكن الجامعة العربية قد فرض عليها أن تنظر النظرة الثانية العميقة لتدرك هذه الحقيقة التي لا تخفى ، ثم تقيم سياستها على هذا الأصل وحده دون الأصول الأخرى التي ورثتها